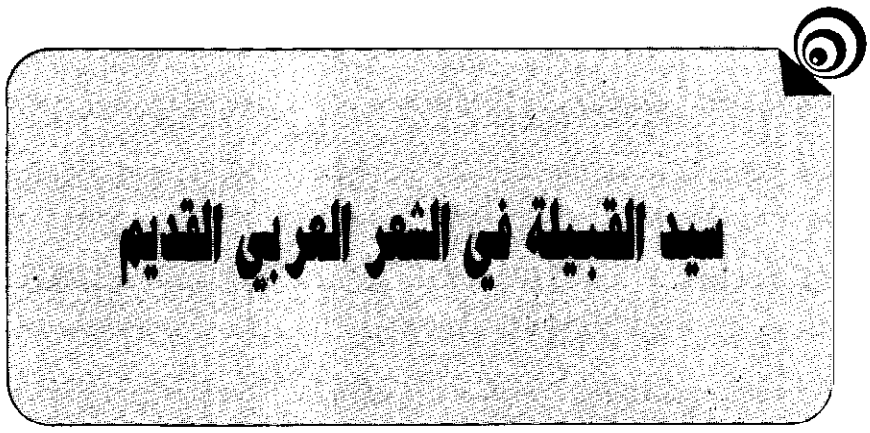

سيد القبيلة في الشعر العربي القديم

الدكتور مصطفى عبد اللطيف جياووك
كلية التربية ـ جامعة البصرة

حمل لنا الشعر القديم صورة من الانضباط العالي الذي كان يمارس بين ابناء القبيلة العربية، وهو انضباط دقيق متزن يعلي من شأن طاعة افراد القبيلة لزعمائها حتى يعد هذه الطاعة مفخرة ومدحة يخلدها الشعر، على ان الفرد نفسه مطالب بأن يكون طامحا الى الرئاسة في قومه مستعدا لتحمل اعبائها وتبعاتها اذا احتاجت القبيلة الى ذلك منه، على أن من المثير للاعجاب ان نجد طاعة السادة مقدمة في كثير من الاحيان على الاشادة بصفات السيد المطاع، يقول مالك بن خالد الهذلي:[1]

فـدى لـبني لحيـان أمي فـأنهم أطـاعـوا رئيسـا منهم غـير عـوق

ويفخر كناز بن صرمة الجرمي بكونه يعمل لخير العشيرة ولا يسيء لها. .ومن ذلك انه لا يحسد كرامها، ويطيع سادتها:[2]

١ ـ ديوان الهذليين، الدار القومية. القاهرة ١٩٦٥، ٣/٨.
٢ ـ الوحشيات ص ١٦٧، المعارف في القاهرة ١٩٦٣ تحقيق الميمني ومحمود محمد شاكر.

ولست بذى نيرب في الكرام مناع خير وسبابها
ولا من اذا كان في جانب أضاع العشيرة فاغتابها
ولكن اطاوع ساداتها ولا أعلم الناس القابها

ويمدح زهير بن ابي سلمى سادة قومه بقدرتهم على الفصل في القضايا الغامضة العقم، ويرد ذلك الى كونهم مطاعين في قومهم واصفا هذه الطاعة بانها حزم لا مثيل له: [٣]

هم جددوا احكام كل مضلة من العقم لا يلفى لامثالها فصل
بعزمة مأمور مطيع وآمر مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل

والحقيقة ان اعتبار زهير طاعة المأمورين حزما وعزما يدل على بصر دقيق بالانسان، فالانقياد للرئيس يحتاج الى شجاعة وقدرة على قهر النزوع الطبيعي الى التفوق، وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الذات، فزهير يصف طاعة رجال كبار النفس من أولي الحزم لرجال حقت لهم الطاعة والانقياد. . ولعل عمر بن شأس يجلو الامر بأوضح من ذلك حين ينص على ان طاعة قومه لسادتهم لا يأتي بها العجز ولا البخل: [٤]

واذا نطاوع أمر سادتنا لم يردنا عجز ولا بخل

وهو نفسه يذم الخامل الذي يطيع لانه مطبوع على العجز: [٥]

فلا تمني بمطروق اذا ما سرى في القوم اصبح مستكينا
يطيع ولا يطاع ولا يبالي أغثاً كان حظك ام سمينا

ويعلو حاتم الطائي على نفسه فيذكر انه يطيع السادة اصحاب الفعال ولا يحدث

---

٣ ـ شرح ديوان زهير بن ابي سلمى، الدار القومية. القاهرة ١٩٦٤، ص ١٠٨.
٤ ـ شعر عمرو بن شأس الاسدي، يحيى الجبوري. النجف ١٩٦٧، ص ٤١.
٥ ـ المصدر السابق ص ٧٣.

نفسه بالسيادة مادام في قومه من يقوم باعبائها ويؤدي حقها:[٦]

أسوّد ذا الفعال ولا ابالي على أن لا اسود اذا كفيت

وتظل طاعة الضعفاء غير محمودة ولا محسوبة في الفضائل وفي ذلك يقول ادهم بن ابي الزعراء الطائي:[٧]

وللموت خير للفتى من حياته اذا لم يطق علياء الا بقائد

وانما يحمد الفتى حين يكون مالكا لقدرات القيادة كلها طامحا لها ثم ينقاد مختارا لمن اختاره قومه سيّداً لهم، وتبدو هذه الموازنة الرائعة حين يصف الشعراء القيادة والانقياد في الرجل الواحد نحو قول المتنخل الهذلي في رثاء أبيه:[٨]

اذا سدته سدت مطواعة ومهما وكلت اليه كفاه

ونحو قول حطائط بن يعفر النهشلي مفتخرا:[٩]

ذر بني فلا أعيا بما حلّ ساحتي أسود فأكفي أو أطيع المسودا

وقول حاتم الطائي:[١٠]

اسوّد سادات العشيرة عارفا ومن دون قومي في الشدائد مذودا
والفى لأعراض العشيرة حافظا وحقهم حتى اكون المسودا

ومما يلحق بطاعة السيد والفخر بها والاعلاء من شأنها ان تقبل من السيد الهفوة

---

٦ ـ ديوان حاتم الطائي، تحقيق د. عادل سليمان، القاهرة ١٩٧٥، ص ٢٥٧.
٧ ـ المؤتلف والمختلف للامدي المقدسي، القاهرة ١٣٥٤ هـ، ص ٣١.
٨ ـ ديوان الهذليين ٢/٣٠.
٩ ـ الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ١٣/٢٧.
١٠ ـ ديوان حاتم الطائي ص ٢٣١.

والخطأ وأن يحتمل قومه خسارة جولة في شأن من شؤون العشيرة وفي ذلك يقول جثامة بن قيس الكناني فاخرا برعاية قومه والوفاء بحقهم وقد ادخل في ذلك أنه لا يلوم أميرهم على الخطأ: (١١)

سلي عني بني ليث بن بكر ... كفى قوما بصاحبهم خبيرا
باني لا ينادي الحي ضيفي ... ولا ألحى على الخطأ الاميرا
واعرض عن اصول الحق فيهم ... اذا التبست واقتطع الصدورا

ويذهب جماعة من الشعراء الى ان لوم الامير على الخطأ امر معروف في طباعهم ولعلهم يريدون من وراء ذلك القول تشجيع القادة وحثهم على تقبل ما يوجه اليهم من نقد ولوم لانه أمر طبيعي لا مفر منه ولا يسلم منه احد ممن يمتحن بالمسؤولية، يقول عبيد بن الابرص: (١٢)

والناس يلحون الامير اذا غوى ... قصد الطريق ولا يلام المرشد

ويقول مرقش الاصغر: (١٣)

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

ويقول القطامي في الاسلام: (١٤)

والناس من يلق خيرا قائلون له ... ما يشتهي ولأمّ المخطىء الهبل

ويصف الحنان الجهني بعض سادتهم بانه كان محمودا فيهم بعامة ولكنه لم يسلم من اللوم فيقول: (١٥)

---

١١ ـ المؤلف والمختلف

١٢ ـ ديوان حاتم الطائي تحقيق د. حسين نصار، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧، ص ٤٢.

١٣ ـ المفضليات ـ تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة ١٩٥٢، ص ٢٤٧.

١٤ ـ ديوان القطامي. د. السامرائي و د. احمد مطلوب. بيروت ١٩٦٠.

١٥ ـ المؤتلف ص ٨٩.

وكـنـت مـسـوّدا فـيـنـا حميـدا وقـد لا تـعـدم الحسـنـاء ذامـا

ويكبر شأن العشيرة وتزداد هيبة وشرفا اذا وجد فيها كثرة من الصالحين للسيادة ممن ينتظرون دورهم بأناة وصبر وكرم فهذا الحماسيّ يمدح بني صريم بأنهم اكثر القبائل شبانا مقاتلين يعينون على السيادة بالطاعة ويقدرون على تحمل تبعاتها اذا كلفوا بها: [١٦]

ولم ار مـعـشـرا كـبـني صـريـم تـضـمـهـم الـتـهـائـم والـنـجـود
اجـل جـلالـة واعـز قـدرا وأقـضـى لـلحـقـوق وهـم قـعـود
واكـثـر نـاشئـا مخـراق حـرب يـعـين عـلى الـسـيـادة أو يسـود

ويقول مضرس بن ربعي الاسدي ان قومه لا يحسدون من تظهر فيه النجابة ومن يلاحظون عليه السعي الى السيادة بل يسعون الى تكثير السادة فيهم باعانة الساعين اليها الراغبين فيها: [١٧]

واذا نـحـو صعـدا فـليس عليـهـم مـنـا الخبـال ولا نـفـوس الحسـد
ونعـين فـاعلنـا عـلى مـا نـابـه حـتى نـيـسـره لـفـعـل الـسـيـد

ومن هنا وجدنا الشعراء القدماء يفخرون بكثرة السادة فيهم او بكثرة الصالحين لها الحاملين لسماتها، يقول العرندس الكلابي: [١٨]

من نلق منهم نقـل لاقيت سيـدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

ويقول خراشة بن عمرو العبسي: [١٩]

فـلا قـوم الا نحن خيـرة سياسـة وخـيـر بـقـيـات بـقـيـت وأولا

١٦ ـ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي. تحقيق احمد امين وعبد السلام هارون. القاهرة ١٩٥٢ ص ١٦٠٠.
١٧ ـ المصدر السابق ص ١١٤٨.
١٨ ـ المصدر السابق ص ١٥٩٤.
١٩ ـ المفضليات ص ٤٠٥.

واطـول في دار الحـفـاظ اقـامـة واربط احـلامـا اذا البقـل اجهـلا
واكـثر منـا سيـدا وابـن سيـد وأجـدر منـا ان يقـول ويـفـعـلا

ومثله لابي الطمحان القيني او للقيط بن زرارة:[٢٠]

واني من القـوم الـذيـن هـم هـم اذا مـات منهم سيد قـام صاحبـه
نـجـوم سـماء كلما غـاب كـوكـب بـدا كـوكب تـأوى البـه كـواكبـه
ومـازال فيهـم حيث كـان مسـوّد تسير المنايا حيث سارت كـواكبه

والشعر القديم يعالج حقائق أساسية في السيادة ومهماتها وصورها فقد يرتقي الى السيادة من لا يعرف منها الا مظاهرها الخادعة وهو عاجز عن ان يتخذ القرار وان يقود الجماعة مكتفيا بشارة الزعامة وخيلائها ولمثل هذا السيد يقول شاعرهم:[٢١]

فـان كـنـت سـيـدنـا سـدتـنـا وان كنت للخـال فـاذهب فـخـل

فهو يطلب من هذا الرجل ان يمارس السيادة ويقود الجماعة، واذا كان يحسب السيادة خيلاءً واستعراضا فليذهب ليستعرض صفاته في ميدان آخر، ويقول عمرو بـن حذار من رجز له ان السيد ينبغي ان يكون مستعدا للقتال مهيئا له اذا حل وقته ولم يكن منه بد، ولا ينبغي ان يتصدي للرئاسة ولا ان يرشح لها من ليس قـادرا على القتال:[٢٢]

من لا يقاتل لا يكن رئيسا

والكرم وبذل المال في صلاح العشيرة يأتي في رأس صفات السادة يقول الاعلم الهذلي:[٢٣]

وان الـسـيـد المـعـلوم مـنـا يجـود بمـا يـضـن بـه الـبـخـيـل

---

٢٠ ـ الحماسة البصرية . . حيدر آباد، الهند ١٩٦٤، ١/١٦١.
٢١ ـ المرزوقي ص ٢٥٢.
٢٢ ـ المؤتلف ص ٢٢٢.
٢٣ ـ ديوان الهذليين ٢/ ٨٧.

ويقول حاتم الطائي : [٢٤]

يقولون لي اهلكت مالك فاقتصد وما كنت لولا ما تقولون سيدا

وليس يعني ذلك أنهم جعلوا السيادة حكرا للاغنياء منهم فهم انما كرهوا البخل، ولم يقصروا بالفقراء المقلين، يقول حسان بن حنظلة الطائي : [٢٥]

انا لعمر ابيك يحمد ضيفنا ويسود مقترنا على الاقلال

ويقول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه : [٢٦]

نسود ذا المال القليل اذا بدت مروءته فينا وان كان معدما

ويرى المقنع الكندي ان الحقد ليس مما يليق بسيد القوم، وانما هو كالاب الذي قد يحتاج الى التقويم والترشيد ولا ينساق الى التشفي : [٢٧]

ولا احمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

ومن اهم صفات السيد التي تلاحظها القبائل في الذين تقدمهم للسيادة صفة الحزم، والحزم يعني عندهم القدرة على حساب الاحتمالات وصواب النظر الى المستقبل بحيث لا يفاجأ السيد بأمر لم يعد له عدته، ولخطورة هذه الميزة في السيد كانت العرب تتأكد من وجودها في الفرد مرؤ وسا قبل ان تكلفه بامر من امور القادة، ويوضح ذلك ابو تمام المعروف باطلاعه الواسع على الشعر القديم وبصره الدقيق به : [٢٨]

---

٢٤ ـ ديوان حاتم الطائي ٢٥٧.
٢٥ ـ شرح الحماسة ١٦٨٢.
٢٦ ـ ديوان حسان ـ تحقيق د. وليد عرفات. لندن ١٩٧١، ص ١/٣٥.
٢٧ ـ شرح الحماسة ص ٣٤٩.
٢٨ ـ شرح الصولي لديوان ابي تمام ـ تحقيق د. رشيد خلف نعمان. بغداد ١٩٧٧، ١/٥٨٤.

ولـذاك كـانـوا لا يـرأس فـيـهـم مـن لم يجـرب حـزمـه مـرؤ وسـا
من لم يُقـد فيـطير من خـيشـومـه رهـجُ الخميس فـلن يقـود خميسـا

وفي وصية لقيط بن يعمر الايادي تفصيل لما يقول ابو تمام، اذ يوصي لقيط ان يكون السيد الذي يختاره قومه واسع الحيلة قادرا على أن يغير من خططه اذا لزم الامر «رحب الذراع» لا يغفل ولا يتهاون حين تكون الامور مواتية له، ولا يعجز او يستسلم اذا عاندته الظروف، صاحب تجربة وخبرة وممن مارس الحرب قائدا وجنديا: [٢٩]

وقـلدوا امـركـم لله دركـم رحب الـذراع بأمـر الحرب مضـطلعا
لا متـرفـا ان رخـاء العيش سـاعـده ولا اذا عض مكـروه بـه خشـعـا
مـازال يحلب هـذا الـدهـر أشـطره يكـون متبـعـا طـورا ومتـبـعـا

ان هذه التكاليف التي يحملها السيد والحقوق التي عليه ان يؤديها لقومه جديرة بأن تتعب القوى من الرجال ومن هنا تنبه قدماء العرب الى تلك الصفة الرئيسة من صفات السيد، ان يكون جلدا لا يهزه التعب ولا يثبطه الملل عن متابعة الجليل والصغير من شؤون قومه، يقول زهير في بعض ممدوحيه: [٣٠]

مـورث المجـد لايغـتـال همتـه عن الـرئاسـة لا عجـز ولا سـأم

.....

وان سـدت بـه لهـوات ثـغـر يـشـار اليـه جـانـبـه سقـيـم
مخـوف بـأسـه يـكـلاك مـنـه عـتـيـق لا الـفّ ولا سـؤوم[٣١]

ويقول الاعلم الهذلي: [٣٢]

وان سـيـادة الاقـوام فـاعـلم لهـا صـعـداء مـطلعهـا طـويـل

ويبدو ان العرب جعلت للسن مكانا بارزا في اختيارها لسادتها لارتباط السن

---

٢٩ ـ الاغاني، الدار القومية. مصر ٢٢/٣٥٧.
٣٠ ـ شرح ديوان زهير ص ١٦٣.
٣١ ـ شرح ديوان زهير ص ٢١٠.
٣٢ ـ ديوان الهذليين ٢/٨٧.

بالتجربة والممارسة الطويلة، ويعبر عن ذلك حسان بن ثابت رضي الله عنه في بعض فخره بقومه فيحرص على وصف سادة قومه بعلو السن والشيب والوقار مع ان السيادة تبدو حتى في اطفال قومه فضلا عن شبانهم والحق ان حسان اطال الوقوف عند قضية السيادة في قبيلته وجمع في قصيدته اللامية التي سنورد بعضها كثيرا مما وجدناه متفرقا عند غيره: [٣٣]

وانا لقوم ما نسود غادرا ... ولا ناكلا عند الحمالة زملا
ولا مانعا للمال فينما ينوبه ... ولا عاجزا في الحرب جبسا مغفلا
نسود منا كل اشيب بارع ... أغر تراه بالجلال مكللا

. . . . . .

نطيع مقال الشيخ فينا اذا سما ... لامر ولا نعيا اذا الامر اعضلا

. . . . . .

وانك لن تلقى من الناس معشرا ... اعز من الانصار عزا وافضلا
واكثر ان تلقى اذا ما اتيتهم ... لهم سيدا ضخم الدسيعة جحفلا
وأشيب ميمون النقيبة نبتغي ... بهِ الخطر الأعلى وطفلاً مؤمَّلا
وامرد مرتاحا اذا ما ندبته ... تحمل ما حملته متربلا

وتبقى السيادة مع ذلك متاحة للشبان غير ممنوعة منهم اذا كانوا بها جديرين، بل نجد المعلوط السعدي يذهب الى ان الاعداد والاستعداد للسيادة يبدأ مع النشأة ويكون ميسورا في الشباب ولكنه يصبح صعبا حين يتقدم العمر يقول: [٣٤]

اذا المرء اعيته السيادة ناشئا ... فمطلبها كهلا عليه عسير

ويقدم الاعشى صورة ممتازة مشبعة بالتفصيل للسيد الشاب وعلاقته بمن هم اقدم منه سيادة واكبر سنا، فهم قد اختاروه وقدموه عن تجربة ورضىً واقتناع، ولذلك

٣٣ ـ ديوان حسان، القصيدة رقم ٦ ص ٤٤.
٣٤ ـ شرح الحماسة ١١٤٨.

تراهم راضين بان يتابعوه ويقبلوا ما يقول وما يرى، أما هو فيرعى حقهم ويشاورهم ويستمع اليهم ويقبل منهم المشورة الحازمة محتفظا بالقرار الاخير في يديه فيقبل ما يشيرون به او يبتدع ويخلق الحلول والقرارات المطلوبة يقول الاعشى في مدحه لهوذة بن علي الحنفي: [٣٥]

قد حملوه فتى السن ما حملت ... ساداتهم فأطال الحمل واضطلعا
وجربوه فما زادت تجاربهم ... أبا قدامة الا الحزم الغنعا
تلقى له سادة الاقوام تابعة ... كل سيرضى بأن يرعى له تبعا
يرعى الى قول سادات الرجال اذا ... أبدوا له الحزم او ماشاءه ابتدعا

وبعد، فان هذه القيم التي توارثها العرب ورسختها الممارسة وخلدها الشعر تفسر لنا تفسيرا صحيحا بعض الحالات من التاريخ التي نظن انها فردية خاصة، فنفهم انها ليست كذلك، نحو حالة خالد بن الوليد رضي الله عنه وقصة انضباطه الرائع قائدا وجنديا، وحالة اسامة بن زيد رضي الله عنه الذي قدمه النبي عليه الصلاة والسلام للقيادة فتى صغير السن وجعل تحت امرته كبار اصحابه من المهاجرين والانصار وحالة محمد بن القاسم الثقفي الذي يقول فيه زياد الاعجم: [٣٦]

ما ان سمعت ولا رأيت عجيبة ... كمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ... ياقرب ذلك سؤددا من مولد

٣٥ ـ ديوان الاعشى. محمد محمد حسين، النموذجية بمصر ١٩٥٠، القصيدة رقم ١٣.
٣٦ ـ شعر زياد الاعجم ـ جمع وتحقيق د. ابتسام الصفار. بغداد ١٩٧٨.